النشاط الثقافي في العالم

انكلترا

رسالة لندن من شفيق مقار

المشكلة ، في هذا الخضم ، هي ماذا تختار ، وماذا تترك جانبا ؟ بل وكيف ، في حيز محدود كهذا ، تستطيع ان تلم بابعاد معقولة لهذا النشاط الذي لا يهدأ ولا ينقطع ؟ وعلى اي وجه من اوجهه تركز ؟ وكل ما تتركه او تؤجله لن تستطيع ان تعود اليه . قد يكون ذلك ممكنا فيما يتعلق بالمسرح والسينما ومعارض الفن التشكيلي ، لان المسرحية او الفيلم يعرضان على مدى شهور ، وربما سنوات باكملها ، ومعارض التصوير والنحت ، بل والتصوير الفوتوغرافي ، تجد من سيول المتهافتين عليها ما يتيح لها ان تطول شهورا . اما المشكلة فهي الكتب والدوريات الثقافية . فانت لا تدخل مكتبة ، اي مكتبة ، الا وتجد الوجوه تغيرت ، والاصوات اختلفت ، من اسبوع لاخر . وجوه الكتب ، واصوات الكتاب الذين يتصدرون الرفوف الامامية . فالايقاع السريع المتلاحق ليس في مجال التكنولوجيا التي تسحرنا وحدها ، بل قبلها (وفيما هو اهم منها لانه ما يغذيها ، ويدفعها ، ويحركها ، ويحاول بعد ذلك ان يتحكم فيها ويوجهها .. ان استطاع) في الفكر ، في الابداع الفني والادبي ، في الانسانيات ، وكل ما يحاول ان يفهم هذا العالم سريع التغير ، ويجد نسقا ممكنا من الحياة لاهله اللاهثين معه .

هؤلاء اناس لا يكلون من البحث . يريدون ان يكون يوم غد غير اليوم الذي قبله ، وليس افضل منه فحسب .

* * *

ولندن تعاني من عقدة نقص اليمة ، واحساس زائد بالنفس . فهي على مرمى حجر من باريس ، وذلك يكفي . فكأنها بلدة ريفية بالقرب من العاصمة . والاجتياح الذي لا يتوقف ، قادما عبر المانش (ومعظم الصحف والمجلات البريطانية ، حتى صحيفة المال والاعمال « الفاينانشال تايمز » ، تفرد مساحات للمسرح الفرنسي ، والسينما الفرنسية ، ونتاج المطابع الفرنسية ، ذلك الاجتياح يسوط لندن ، فوق انها ، منذ مقدم الربيع ، بدأت كدأبها تتبرج ، وتستعد لاستقبال القادمين عبر الاطلنطي وغير الاطلنطي ، علها تبهرهم قليلا هي ايضا ، رغم مشكلات التضخم ، والعلاقات الصناعية ، والنزعات الانفصالية التي قويت في اسكتلندا وويلز بعد اكتشاف النفط في بحر الشمال ، ومأزق السوق الاوربية المشتركة : تلك الزيجة غير المريحة التي انقسمت بريطانيا على نفسها فيما يخص الاستمرار فيها ، رغم متاعبها ، من عدمه : تريد انهاءها بالطلاق ، ولا تطيق التفكير في عواقبه .

لكن ذلك كله لم يطمس الوجه الاخر او يطغ عليه : وجه العاصمة الاوربية الكبرى التي لا تستطيع ان تنسى انها ـ في يوم غير بعيد ـ كانت عاصمة للعالم باسره . فجنبا الى جنب مع مهرجان للباليه (اهم فقراته زيارة من البولشوي حاولت بعض العناصر الصهيونية استغلالها سياسيا بالتظاهر في ميدان الطرف الاغر) . ومعارض الفن التشكيلي : معرض الصيف ، ومعرض ـ طغى عليه ـ لاعمال الانطباعيين الفرنسيين ، لم تتح لمن دخله الا دقيقة واحدة على الاكثر ـ ان كان محظوظا ـ امام كل لوحة من اللوحات التي عرضت به ، من فرط تزاحم الاميركيين على الثقافة وهم يمضغون اللبان ويزعقون باعلى اصواتهم ، وبجانب محاولة ـ لم توفق كثيرا ـ لاجترار بعض الامجاد المسرحية القديمة .. طوفان حقيقي من الكتب .

« رسائل في النقد »

ولنبدأ بالكتب . والغريب ان معظم ما له قيمة مما تخرجه المطابع البريطانية هذه الايام مترجم ، وكأنما « هيئة الكتاب » ، كرم الله وجهها ، جاءت من القاهرة . وحتى الكتب الهامة التي تحمل اسماء مؤلفين انجليز ، اما اشبه « بالتصافي » ، او مجرد اجترار . كتاب ليفز (F . R . Leavis) الاخير : « رسائل في النقد » (Letters in Criticism) الناشر تشاتو Chatto ، تحرير وتقديم جون تاسكر ، عبارة عن سبعة وستين خطابا وجهها ليفز الى الصحف والمجلات ، في مناسبات مختلفة ، مختلفا مع راي ، او عارضا وجهة نظر ، او مصححا خطا ما ، باسلوب المناظرة ، النضالي بعض الشيء الذي اشتهر به . واهم ما تبرزه الرسائل السبع والستون التي اختارها وجمعها تاسكر بين دفتي الكتاب ، ايمان ليفز باهمية المعارك والاشتباكات الادبية ، او ما يدعوه هو بالمناقشة العلنية المفتوحة ، في الابقاء على الادب حيا في اذهان الناس واسماعهم ، وجعله قضية آنية مطروحة للنقاش ، ومثيرة للاهتمام . وان اردنا مثالا على معارك ليفز الادبية فلنذكر معاركه المدوية مع « مستر اليوت » ، ومعركته مع الروائي اللورد سنو (C.P. Snow) التي حاول ليفز ان يضع فيها موضع التطبيق ـ فكريا ـ حلم د . هـ . لورنس بمجتمع لم تلوثه وتفسده التكنولوجيا . والكتاب الاخير ، في جملته ـ يبدو كما لو كان تلخيصا لليفز استاذ النقد ، وانحناءة اخيرة قبل نزول الستار . وبالحقيقة ، ليس فيه جديد .

(ويبدو ان هذا نوع جديد من الكتب أخذ طريقه الى الازدهار ، فقبل نشر خطابات ليفز الى الصحف بوقت قصير ، نشرت دار فيدنفلد (Weidenfeld) كتاب « آراء قوية » (Strong Opinions) لفلاديمير نابوكوف (لوليتا) ، وقد جمع الكاتب فيه كل احاديثه الصحفية وخطاباته الى الصحف والمجلات خلال السنوات الماضية ، جنبا الى جنب مع بعض تعليقات ، من قبيل الثرثرة الادبية ، على مشاهير الكتاب . وتلك خصلة معروفة من خصاله جعلته مطلوبا بكثرة من جانب كتاب المقابلات الصحفية . ولنستعرض بعض « آرائه القوية » في ذلك المجال . ارنست همنجواي ؟ كاتب كتب اطفال ت.س.اليوت ؟ كاتب درجة ثانية . سارتر ؟ كاتب درجة ثانية ، شانه شان هنري باربوس (مؤلف الجحيم) . وما عليك ، لكي تتأكد من ذلك ، الا ان تقرأ له « الغثيان » ، فتكتشف تحت توتره وحدتها خارجا ، ذلك النوع الرث المتسيب من الكتابة ، داخلا . والبير كامي ؟ آه ! مسيو كامي الفظيع . وهكذا . وفي مقابل ذلك ، حركة التفاف دائرية معقدة للغاية تقول في النهاية ان نابوكوف كاتب القرن العشرين لا منازع . وعلام كل هذا ؟ ربما يحس الكاتب انه لم يعد لديه ما يقال ، وانه لم يعد شيئا يذكر ؟)

ذكرى اللورد بايرون

ولنعد الى لندن . فقد احتفلت بريطانيا مؤخرا بالذكرى المائة

والخمسين لوفاة شاعرها الرومانسي الكبير جورج جوردون ، لورد بايرون . والواضح ان الشاعر غير المكترث لاراء مواطنيه ما زال يثير حيرة مواطنيه ونقمتهم . فقد كانت تلك الذكرى التي احتفل بها احتفالا وقورا مناسبا (مناسبا للانجليز لا لبايرون) فرصة للتساؤل: هل بايرون شاعر عظيم ؟ هل هو شاعر هزلي؟ هل كان افاقا بعض الشيء ؟ بل وفرصة للتساؤل ايضا : هل كان موته في ميسولونجي ، دفاعا عن حرية اليونان ، عملا مجانيا ، لا نفع فيه ؟ وما من شك في ان العصر ليس عصر رومانسية ـ لانه ، بصرف النظر عن حيرة الانجليز وضغينتهم تجاه هذا الشاعر الذي ما زال موقفهم منه اشبه بما كان عليه موقف جيرانهم المتعبين في ايرلندا من اوسكار وايلد وجيمس جويس ، لا تخطيء الاذن ، فيما كتب عن بايرون بمناسبة مرور قرن ونصف على موته ، نبرة سخرية واستخفاف باحلامه ورؤاه التي تبدو الان مراهقة بعض الشيء . ولا ادل على ذلك من ان الكتاب الهام الذي نشر عن الشاعر بمناسبة تلك الذكرى :

« لورد بايرون : كشف حساب ختامي » ، بقلم الباحثه دوريس لانجلي (Doris Langley : Lord Byron - Accounts Aendered) الناشر مري Murray بحث اكاديمي متعمق ، كرس لحسابات بيرون وشئونه المالية (واثبت ان الشاعر كان مدينا ومرتبكا ماليا) ولم يكرس لشعره ، او حتى للخوض في فضائحه العائلية التي يلذ الخوض فيها مؤرخي الادب .

ولعل نظرة جانبية سريعة الى ما تخرجه المطابع الانجليزية في مجالات اخرى غير الادب توقفنا على سر هذه الاستهانة الى حدالنفور من شاعر عظيم كلورد بايرون . فعلى مدى اسابيع قليلة متلاحقةتصدرت رفوف المكتبات كتب هذه عناوينها : « هتلر » ، بقلم فيرنر مازر ـ «حياة ادولف هتلر وموته » ، بقلم روبرت بين ـ » اهداف الحرب التي شنها هتلر » ، بقلم نورمان ريتش ـ « قواد هتلر » ، بقلم ريتشارد همبل . وقد زاحمت هذه العناوين ، على رفوف المكتبات ، العناوين التالية : « جوزف ستالين ، الرجل والاسطورة » ، بقلم رونالدهينجلي ـ « ستالين : الرجل وعصره » ، بقلم آدام اولام ـ « ستالين كثوري: ١٨٧٩ ـ ١٩٢٩ » ، بقلم روبرت تاكر . ولعل تفسير هذه الموجة فيذلك التعليق اللاذع الذي جاء من المانيا الغربية مؤخرا على سلسلة ظل التليفزيون الانجليزي ببثها طوال شهور عن مقتل جولايتز النازي ومحاولات ضباط الحلفاء للهرب منه . فقد قال معلق الماني ان الانجليز ـ فيما يبدو ـ يعالجون مشاكلهم الحالية ، الناجمة عن تغير وضع بريطانيا في العالم ، باجترار دورهم في الحرب العالمية الثانية .ولقد يفسر ذلك فعلا ـ من جانب ما ـ هذا الطوفان من الكتب والاعداد الخاصة من المجلات عن تلك الحرب وكل ما له بها اية صلة . خذ مثلا رواية كينيث ماكسي (Kenneth Macksey) وهو ضابط دبابات سابق خدم في معركة نورماندي، « المعركة » (The Battle) الناشر ماكدونالد وجين ، وهي رواية تدور احداثها حول الدور الذي قامت به كتيبةمشاة ابان الاقتحام الاميركي لشبه جزيرةشربورج .وكعمل روائي لا تزيد قيمة « المعركة » ـ ان لم تقل ـ عن كثير من كتب عالجت نفس الموضوع باسلوب روائي ، وظهرت ابان الحرب وبعدها . لكن الرواية قوبلت بحفاوة غريبة من جانب النقاد ، تماما كما قوبلكتاب « يوم الغزو » (D . Day) وهو عرض تسجيليلاحداثذلك اليوم العظيم اشترك في كتابته ثلاثة ممن اشتركوا في القتال الضاري على شاطيء نورماندي ، وكتب مقدمته اميرال الاسطول الايرل ماونتباتن .

نعم ، ما من شك في ان الانجليز يحسون حنينا غريبا لامجاد تلك الحرب ، قد يكون ـ كما قال ذلك المعلق الالماني ـ ضربا منالتعويض، وقد يبدو ـ رغم ذلك ـ مستغربا من اناس يقفون الان ضد الحرب ويصرون على استهجانها حيثما وقعت ، وايا كانت اسبابها . لكن ذلك الحنين الى ايام الحرب الشجاعة ، سواء بدا لنا غريبا ، او لم يبد كذلك ، يلقي ضوءا ، ما في ذلك شك ، على طبيعة المزاج الذي عبر عن نفسه في احياء ذكرى بايرون بنشر بحث اكاديمي عن حالته المالية التي كانت مرتبكة ، والتساؤل ـ بشيء من شرود الذهن ـ ترى هل بايرون كشاعر مهزلي (في « دوجوان ») افضل ، ام كشاعر مكتئب (في « تشايلد هارولد ») ؟ وذلك في الوقت الذي يحتفي فيه بذكرى شاعر مغمور (قياسا الى بايرون على الاقل) مات في الحرب العالمية الثانية وهو في الرابعة والعشرين ، هو كيث دجلاس (Keith Douglas) الذي تذكرنا حكايته في كتاب دزموند جراهام عنه ، بسيجفريد ساسون ، وروبرت بروك وغيرهما من شعراء حرب سنة ١٩١٤، وان لم يذكرنا شعره بشعرهم . وما من شك في ان كل فنان ، بل كل انسان ، يموت دفاعا عن الحرية ، يستحق ان يذكر، وان يحتفي بذكراه . لكن بايرون مات هو الاخر دفاعا عن الحرية. ولقد كنا نتصور ان قضية الحرية لا تتجزأ ، سواء تعلق الامر بحرية اوربا ، او حرية اليونان ـ او حرية موزمبيق ـ لكن تلك ، فيما يبدو، قضية تختلف فيها الاراء . فاسمع ما يقوله كلايف جيمس (Clive James) عن موت بايرون :« اما عن لورد بايرون كمقاتل في سبيل الحرية ، فما من شك في ان اشتراكه في حرب دفاعا عن حرية اليونان كان عملا لا فائدة فيه . ولقد كان من المحتمل ان تضيع ميتته سدى لولا انها كانت اول برهان في سلسلة متصلة من البراهين بلغت ذروتها بموت تشي جيفارا ، يقيم الدليل على ان حرية بلد من البلدان لا سبيل الى استخلاصها بفضل اشتراك اجانب من ذوي الميول الرومانسية » .

« غراس » مترجما

وهكذا يجرنا الادب ، مرة اخرى ، الى السياسة . لكن ذلك لا مهرب منه فيما يبدو ، خاصة في عصرنا . انظر مثلا الى الكاتب الالماني جونتر جراس ، وترجمة كتابه الاخير « من يوميات قوقع » (From the Diary of A Suail) من اهم ما اخرجته المطابع الانجليزية في الاونة الاخيرة ، وقد قلنا ان اقل القليل من الكتب الهامة التي صدرت مؤخرا هو الذي يحمل اسماء مؤلفين انجليز .

واهمية جونتر جراس ، بجانب قيمته ككاتب يجيد صنعته ويجدد في بعض حيلها ، انه نموذج مكتمل للمثقف الاوربي المعاصر بكلتناقضاته، وانقساماته ، وحيرته التي يحاول ان يطمرها في رمال متحركة ما لعقيدة ما ، وموقف نبل ما مريح لنفس من يقفه . واهمية كتاب جراس الاخير انه ينشر بالانجليزية مواكبا سقوط المستشار الالماني السابق فيلي برانت . وجونتر جراس كان (وما زال فيما نعتقد) رجل فيلي برانت ، كما كان اندريه مالرو رجل ديجول . والتشبيه مع الفارق . لان مالرو من عيار اخر تماما ، واكثر حيطة من جراس . فلعل افظع خطر يتهدد الفنان هو ان يكون رجل احد . يقول جراس :« ان اول ما اجتذبني الى فيلي برانت هو انه لا يتحدث عن العدل وكفى ، بل يتحدث دائما عن مزيد من العدل . ولقد بدا لي ذلك شيئا غير عادي وغير مالوف . لقد كان برانت دائما انسانا مثاليا ورجل سياسة .وهو اول زعيم الماني يدخل في عملية الحكم فعلا مفاهيم القرن الثامن عشر الخاصة بالتسامح والتنوير ، (بمعنى) انه كان يسلم دائما بوجود امكانيات اخرى ، وايمانات اخرى .. انه الماني اكثر مني .. ومعلم كبير ».

ولقد بدا جراس في اول امره كما لو كان آخذا طريقه الى اليسار . لكنه الان محتقر من اليسار بقدر ما هو مكروه من اليمين. فاليساريون يدعونه الخائن الوردي ، اي الليبرالي ، واليمينيون يدعونه كاتب الادب المكشوف الاحمر . فلقد اختار الوسط . وذلك هو المسار الذي يتخذه موقعه الشهير في كتابه هذا .

ولعل الاهتمام البالغ الذي قوبل به الكتاب في انجلترا راجع الى المقارنات الكثيرة التي عقدت يوم استقال برانت بغير تردد ، بمجرد ان ثارت فضيحة التجسس المشهورة ، وراجع ايضا الى ان بريطانيا بعد خيبات امل متكررة في اليمين المحافظ ، واليسار العمالي ، بدات ـ منذ الانتخابات العامة الاخيرة ـ تنظر ،بشيء كالاشتياق ، الى الطريق الوسط ، ممثلا في حزب الاحرار .

رسائل كافكا

والكتاب الاخر الذي شد اهتمام لندن مترجم بدوره ، ومن الالمانية. وهو كتاب رسائل . مجموعة خطابات كتبها فرانتز كافكا الى فيليس باور الفتاة التي احبها وعقد خطبته عليها مرتين ، وفسخها مرتين: المرة الاولى بسبب الخوف ، والمرة الثانية بسبب السل الذي اصيب به ، فتركته وتزوجت من رجل موسر ، وذهبت لتعيش معه في سويسرا، ثم في اميركا ، تاركة كافكا لحبه الخائب الذي حاول ـ في رسائله هذه ـ ان يعيشه كتجربة مكتوبة اختلط فيها الواقع بالحلم تماما ، بعد ان فشل فيه كخبرة واقعية معاشة . وقد اوصى كافكا قبل موته بحرق تلك الرسائل بين ما اوصى بحرقه من كتاباته . وخيرا فعل اصدقاؤه اذ ابقوا عليها ، لان الرسائل مكملة ليومياته وكوابيسه الابداعية ، وكاشفة بنفس القدر ـ وفي مواضع بعينها كاشفة بعمق اكثر من عالمه الفسفي الغريب الاسر الذي قد يكون وصفه في هذه الاسطر : « .. نادرا جدا ما انجح في عبور ارض الحدود تلك الفاصلة بين العزلة والدفقة . تلك كانت دائما ارضي . ولقد عشت فيها اكثر مما عشت في العزلة الكاملة .. وبالمقارنة اليها كم تبدو جزيرة روبنسون كروزو حية جميلة ومبهجة !»

بيكيت ودوبوفوار

ومن « رسائل الى فيليس » (Letters to Felice) الناشر: Secker and Warburg الى كتاب مترجم اخر ، هو« نصوص بلامؤدى» (Texts for Nothing) لصامول بكت الذي كتب عن حياته مرة قائلا انه كلما تأملها بدت له اشبه بدرب صحراوية يقطعها تحت سياط قهر لا يرحم وهو آخذ في ترجمة نفسه ، بلا انقطاع ولا مؤدى ، من الفرنسية الى الانجليزية . والنص ليس جديدا ، فهو من مرحلة الثلاثية وجودو ، لكنه اذ ينشر مترجما الى الانجليزية ، يتصدر ـ بعد كل تلك السنين ـ قائمة الاعمال الابداعية الهامة التي تنشر ، وما اقلها .

وبعد كتاب بكت ، كتاب آخر مترجم من الفرنسية بدوره ، هو الجزء الرابع من السيرة الذاتية لسيمون دبوفوار . وقد نشر بالانجليزية بعنوان (ALL Said And Done) الناشر اندريه دويتش André Deutsch .

واحتفاء الصحافة الادبية بصدوره لافت للنظر . وقد مهدت الصحفية كارولين مورهد لصدوره بحديث طويل وهام اجرته مع سيمون دبوفوار ، تحدثت فيه الكاتبة الفرنسية عن طفولتها ، ومرحلتها الراهنة ، وتحدثت في السياسة ، طبعا ، وعن السعادة ، وتحرير المراة ، وعن الزواج ، الذي وصفته بانه نظام شديد الخطر ..

اما الكتاب الذي اجتاح كل الكتب وتصدر قوائم اكبر المبيعات (Best - Sellers) طوال اسابيع باكملها ، فلا هو كتاب ادب ، او سياسة ، او حتى جنس، بل تحقيق صحفي بعنوان « احياء » (Alive) بقلم بيرز بول ريد (Piers Paul Read) الناشر Secker and Warburg

يروي فيه كاتبه محنة فريق كرة من اورجواي سقطت به الطائرة في جبال الاندیز ، عام ١٩٧٢ . وكانت الطائرة مستاجرة لنقل الفريق وعددا من المشجعين والاصدقاء والاقارب الى مباراة ما . وعندما سقطت بكل اولئك في عاصفة ثلجية ، قتل من ركابها الخمسة والاربعين تسعة وعشرون ، وقضى الناجون عشرة اسابيع في جحيم ثلجي ، اضطروا خلالها الى أكل لحوم اصدقائهم واقاربهم الموتى حتى لا يقتلهم الجوع. وتلك هي المسالة الرئيسية في الكتاب ، والسبب في نجاحه المدوي. ولقد كانت ، على مدى اسابيع باكملها ـ مثار مناقشات ومناظرات وقورة في الصحف والمجلات والبرنامج الثالث (برنامج المثقفين) بالاذاعة .

والكتاب الذي زاحم كتاب آكلة لحوم البشر ، كتاب عن الشياطين! رواية « طارد الشيطان » (The Exorcist) بقلم ويليم بيتر بلاتي (William Peter Blatty) وقد حطم هو والفيلم الذي صنع منه كل الارقام القياسية في عالم المجانين هذا .

والى رسالة قادمة نتحدث فيها عن المسرح والسينما وموسم الباليه.

لندن

الثورة والثورة المضادة

نحو حساسية ثورية جديدة

تاليف هربرت ماركوز

ترجمة جورج طرابيشي

في الوقت الذي توجه فيه الرأسمالية اهتمامها الاول الى اخماد حرائق التمرد والثورة داخل حدودها وخارجها على حد سواء ، تبدو انها شرعت باعادة تنظيم نفسها تحسبا وتحاشيا لخطر ما يزال غامضا لكنه كلي الحضور ، خطر حركة تعانق لاول مرة في التاريخ الكرة الارضية بأسرها . وازاء الاعراض الاولى لهذا الخطر المستطير تنكب الرأسمالية على تأسيس الثورة المضادة وتكريسها. هذا لا يعني انها لم تعد تنجب بنفسها حفاري قبرها ، ولكن وجوههم تختلف اليوم عما كان متوقعا ، كما لم يعد شاغلهم الاوحد تغيير العلاقات الانتاجية والطبقية ، وانما ايضا العلاقات بين الانسان والطبيعة ،طبيعته الذاتية والطبيعة المحيطة به، وكلتاهما على حد سواء عرضة اليوم لتخريب منهج .

في هذا الكتاب الجديد الهام يرسم ماركوز ، عبر تحجر النظريات الثورية المعهودة ، المعالم العريضة لحساسية ثورية جديدة .

منشورات دار الآداب